المعاني الإنسانية
بين شكسبير ونزار قباني أنموذجًا

رولا بيطار *

نافذة على البحث:

إنّ الحبّ مع تنوعه هو من أسمى أنواع المشاعر الإنسانية وأرقاها، وهو أول ما يشعر به الإنسان حتى قبل أن يولد. هي العلاقة السامية التى تتفاوت بين الأم وولدها، فتكون كالبرعم الصغير الذي ينشر الحبّ والحنان في قلب الطفل وأمّه وهو في أحشائها، ثمّ ما يلبث أن ينمو ويترعرع حتى يصبح مع خروج الطفل من أحشاء أمه كزهرة ياسمين يمسّ عبيرها كلّ من يمرّ حولها. فإن غرست هذه الزهرة نمت وأينعت وفاح عبيرها، وكلّما سقت زاد عبيرها بالانتشار، ولمست كلّ من مرّ بقربها بلمسة من حنان تتغاير من شخص الى آخر.

فالحبّ إن أردنا أن نتكلم عليه، فلا تكفينا آلاف السطور، فهو الغطاء في عزّ البرد، وهو النسمة العليلة في عزّ الحر، وهو الفاكهة الخضاء حيث لمستها ملأت وجدانك وكيانك بالحبور والنشوة، وهو الأمل الضائع الذي يشغل عمرك في البحث عنه، وهكذا يستطيع الإنسان أن يملأ مجلدات عن الحبّ، ويبقى قلمه عاجزًا عن وصفه.

إنّ الحبّ شغل الدنيا وملأ العالم، فلا يكاد يخلو زمن أو عصر من شاعر يؤرقه الحبّ ويقضّ مضجعه، فيعمد الى الكتابة كوسيلة يعبر بها عمّا يقاسيه أو يعانيه في الحبّ وأزقته. ويهدف هذا البحث إلى أن يضيء واحات من واحات الحبّ ذكرها شاعران مختلفان من عصرين مختلفين نشآ في بيئتين مختلفتين، وأن يظهر ماذا يغلف قلبيهما من مشاعر وأحاسيس فاضت لتمسّ القارئ بلمسة تشعل وجدانه بالحبّ والحنان. وختامًا أن يقارن من خلال نظمهما، معانيَ تآلفت وأخرى اختلفت. هذان الشاعران هما السوري نزار قباني، والانكليزي ويليام شكسبير.

وإن عجز هذا البحث عن حصر نثرهم كلّه عن الحبّ، حيث يصعب معالجته في هذا البحث الصغير، إلّا أنّه كان شاهدًا عن بعض النماذج التي سيقارن بينها ويتلمس الفروق، ويظهر هل تغير معنى الحبّ من مكان الى آخر، أو من عصر الى آخر؟

- **معاني الحبّ بين شكسبير ونزار**

1- تقف الأسطر والكلمات عند شكسبير ونزار عاجزة عن وصف الحبّ ولواعجه. فنزار يقول في "كتاب الحبّ" في القصيدة 14:

"ذوبت في غرامك الأقلام
من أزرق.. وأحمر.. وأخضر
حتى انتهى الكلام"[1]

ويقول أيضًا في قصيدته 51:

"عبثًا ما أكتب سيدتي
إحساسي أكبر من لغتي
وشعوري نحوك يتخطى
صوتي.. يتخطى حنجرتي
عبثًا ما أكتب.. ما دامت
كلماتي.. أوسع من شفتي
أكرهها كل كتاباتي
مشكلتي أنك مشكلتي"[2]

ويضيف في قصيدته 52:

"لأن حبي لك فوق مستوى الكلام
قررت أن أسكت... والسلام"[3]

ويقول شكسبير:

Sonnet 102

"My love is strengthen'd, though more weak in seeming;
I love not less, though less the show appear:
That love is merchandized whose rich esteeming
The owner's tongue doth publish everywhere"[4]

Sonnet 103

"Alack, what poverty my Muse brings forth,
That having such a scope to show her pride,
The argument all bare is of more worth
Than when it hath my added praise beside!
O, blame me not, if I no more can write!"

2- إنّ كلًا من شكسبير ونزار يرى في شعره ديمومة وبقاء لمحبوبته بحيث أنّها لن تذبل أو تشيخ أبدًا. فيقول نزار في "كتاب الحب" القصيدة 40:

"لا تقلقي يا حلوة الحلوات
ما دمت في شعري وفي كلماتي
قد تكبرين مع السنين.. وإنما
لن تكبرين أبدا.. على صفحاتي"[5]

ويقول شكسبير:

Sonnet 18

"But thy eternal summer shall not fade
Nor lose possession of that fair thou owest;
Nor shall Death brag thou wander'st in his shade,
When in eternal lines to time thou growest:
So long as men can breathe or eyes can see,
So long lives this and this gives life to thee."[6]

ويبدو أنّ العينين قد أخذت مساحة كبيرة في مشاعر المحبين بسبب ما تحمله في

طياتها من معان من الصعب أن يعبر عنها الكلام. فنزار يقول في القصيدة 7:

"لو خرج المارد من قمقمه
وقال لي: لبيك
دقيقة واحدة لديك
تختار فيها كل ما تريده
من قطع الياقوت والزمرد
لاخترت عينيك.. بلا تردد"[7]

ويضيف في قصيدته 42:

"وكلما سافرت في عينيك يا حبيبتي
أحس أني راكب سجادة سحريه
فغيمة وردية ترفعني
وبعدها.. تأتي البنفسجيه
أدور في عينيك يا حبيبتي
أدور مثل الكرة الأرضيه"[8]

وأيضًا يقول في قصيدته 19:

"وحين يأتي الصيف يا حبيبتي
أسبح كالأسماك في بحرتي عينيك"[9]

ولا ينسى كم يغوص في عيني محبوبته فيقول في قصيدته 34:

"عيناك مثل الليلة الماطرة
مراكبي غارقة فيها
كتابتي منسية فيها
إن المرايا ما لها ذاكره"[10]

أما شكسبير فيقول:

Sonnet 14

But from thine eyes my knowledge I deprive
And, constant stars, in them I read such art
As truth and beauty shall together thrive[11]

3- قد عبّر الشعراء عن معاناتهم في الحبّ وتأثيره في أجسادهم وأرواحهم، فنزار يقول في قصيدته 23:

"محفورة أنت على وجه يدي
كلما حاولت أن تبتعدي
دقيقة واحدة
أراك في جوف يدي"[12]

ويقول نزار أيضًا في قصيدته 12:

"أنا عنك ما أخبرتهم.. لكنهم
لمحوك تغتسلين في أحداقي
أنا عنك ما كلمتهم.. لكنهم
قرأوك في حبري وفي أوراقي"

ينوء نزار بحمله الممزوج بين المرارة والحلاوة فيقول في قصيدته 16:

"حبك مثل الموت والولادة
صعب بأن يعاد مرتين".

أما شكسبير فيصف لوعة الحب فيرمز لها من خلال وصف ارتجاف أكتافه فيقول:

Sonnet 73

Upon those boughs which shake against the cold,[13]

ويعبر شكسبير عن لحظة تذكر المحبوب تأثيرها في نفسه:

Sonnet 29

Haply I think in thee, and then my state,
Like to the lark at break of day arising

For thy sweet love remembered such wealth brings
That then I scorn to change my state with kings[14]

4- يبدو أن للحبّ تأثيرًا قويًّا على الحواس فهو له رائحة ولون وطعم، فنزار يقول في ديوان "كتاب الحب":

"للحب رائحة.. وليس بوسعها
أن لا تفوح.. مزارع الدراق"

أما عند شكسبير فالحب عبارة عن برعم يتنشق عبير الصيف:

This bud of love, by summer's ripening breath,
May prove a beauteous flower when next we meet.[15]

5- يشبه نزار أشعاره بالأقحوان والورود وذلك حينما تعبق بحديث المحبوبة، فيقول في قصيدته 28:

"وتصبح الأشعار في دفاتري
حقول ميموزا وأقحوان"[16]

كذلك شكسبير يعمد إلى الصيف وأجوائه المفرحة ليعبر عن الحب فيقول:

Sonnet 18

Shall I compare thee to a summer's day?
Thou art more lovely and more temperate:
Rough winds do shake the darling buds of May,
And summer's lease hath all too short a date[17]

6- يبدو أن الحزن له بريقه الخاص في نفوس العشاق، فهو الخبز الذي منه يأكلون فنزار يقول في قصيدته 29:

"إني أحبك عندما تبكينا
وأحب وجهك غائما وحزينا
الحزن يصهرنا معا ويذيبنا
من حيث لا أدري ولا تدرينا
تلك الدموع الهاميات أحبها
وأحب خلف سقوطها تشرينا
بعض النساء وجوههن جميلة
وتصير أجمل.. عندما يبكينا"[18]

ونزار ينزف في حب المحبوبة معذب جريح، فهو يقول في قصيدته 32:

"جميع ما قالوه عني صحيح
جميع ما قالوه عن سمعتي
في العشق والنساء قول صحيح
لكنهم لم يعرفوا أنني
أنزف في حبك مثل المسيح"[19]

وأيضًا يقول في قصيدته 33:

"يحدث أحيانا أن أبكي
مثل الأطفال بلا سبب
يحدث أن أسأم من عينيك الطيبتين
.. بلا سبب
يحدث أن أتعب من كلماتي
من أوراق من كتبي
يحدث أن أتعب من تعبي"[20]

أما شكسبير فيبدأ قصيدته ليعبر عن حاله فيقول:

Sonnet 29

When in disgrace with fortune and men's eyes

Shall alone beweep my outcast state,
And trouble deaf heaven with my bootless cries,
And look upon myself, and curse my fate,
Wishing me like to one more rich in hope[21]

7- نرى نزار يتعامل مع جسد المرأة وكأنّ لا خصوصية فيه، فيذكر أدق التفاصيل مما يأخذك برحلة بين نهدي المرأة وحنايا جسدها فيقول في قصيدته 44:

".. إني رسول الحب
أحمل للنساء مفاجآتي
لو انني بالخمر.. لم أغسلهما
نهداك.. ما كانا على قيد الحياة
فإذا استدارت حلمتاك
فتلك أصغر معجزاتي"

وأيضًا يقول في قصيدته 45:

"أجمل ما فيك هو الجنون
أجمل ما فيك، إذا سمحت
خروج نهديك على القانون"

ويسترسل نزار في هذا السياق، فيقول في قصيدته 46:

"تعري فمنذ زمان طويل
على الأرض لم تسقط المعجزات
تعري.. تعري
أنا أخرس
وجسمك يعرف كل اللغات"

أما شكسبير فيصف ما يأرق فكره من أفكار إباحية فيقول:

Sonnet 128

Do I envy those jacks that nimble leap,
To kiss the tender inward of thy hand,
Whilst my poor lips which should that harvest reap,
At the wood's boldness by thee blushing stand.
To be so tickled they would change their state
And situation with those dancing chips,
O'er whom thy fingers walk with gentle gait,
Making dead wood more blest than living lips,
Since saucy jacks so happy are in this,
Give them thy fingers, me thy lips to kiss.

قد يكون الحبّ لعنة لا يتفلّت من حباله أحد، وقد يكون فرحة تملأ قلب صاحبه أهازيج وترانيم. وفي خضم هذه الأجواء نرى نفوسًا عاجزة عن التعبير، وأخرى تثقلها الكلمات والمعاني، فتفيض على الورق. لكن مع تبدّل العصور، وتغير الأزمنة والأمكنة، تبقى معاني الحب ذاتها لا تتبدل ولا تتغير، تتوارثها الأجيال، ويعبّر عنها الشعراء.

***

الهوامش

* تُعدّ أطروحة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها – المعهد العالي للدكتوراه – الجامعة اللبنانية

1- نزار قباني، كتاب الحب، منشورات نزار قباني، بيروت 1990، الطبعة الرابعة عشرة.

2- المصدر نفسه.

3- المصدر نفسه.

4_ William Shakespeare, William Shakespeare's Sonnets, An Electronic Classics Series Publication, Jim Manis, The Pennsylvania Staten University, 1999-2013. P:58

5- نزار قباني، كتاب الحب.

6_ William Shakespeare, William Shakespeare's Sonnets. P: 16

7- نزار قباني، كتاب الحب.

8- المصدر نفسه.

9- المصدر السابق.

10- المصدر نفسه.

11_ William Shakespeare, William Shakespeare's Sonnets. P:14

12- نزار قباني، كتاب الحب.

13_ William Shakespeare, William Shakespeare's Sonnets. P43:

14_ William Shakespeare, William Shakespeare's Sonnets. P21

15_ William Shakespeare, Romeo and Juliet, 2.2 p:121-122.

16- نزار قباني، كتاب الحب.

17_ William Shakespeare, William Shakespeare's Sonnets. P: 16.

18- نزار قباني، كتاب الحب.

19- المصدر نفسه

20- المصدر نفسه.

21_ William Shakespeare, William Shakespeare's Sonnets.



احمد صادق سعد فرحان صالح 1988